

خطاب الرسائل الأدبية مقارنة تداولية

The discourse of literary letters pragmatic approach

غالم عبد الصمد*

جامعة سيدي بلعباس

abdessamed.ghalem@univ-sba.dz

تاريخ الاستلام: 2022/.9./25. تاريخ القبول: 2023/.1/14. تاريخ النشر: 2023/3/8

ملخص:

لا يمكن فهم الأدب إلا بربطه بمتصور "الجنس الأدبي"، والحقيقة أن مسألة الأجناس الأدبية ضاربة في القدم، فقد كان لها حضور في الفكر الغربي القديم مع أفلاطون وأرسطو لينبعث الاهتمام بها من جديد في الدراسات النقدية المعاصرة خاصة مع ظهور المناهج اللسانية التي حاولت جاهدة فهم الخطاب الأدبي، وتعتبر المقاربة التداولية من أهم هذه المقاربات التي حاولت ربط الإنتاج اللغوي بمستعمليه وبمختلف الظروف والملابسات التي تحفّ عملية التلفظ، و سنسعى من خلال هذا البحث لاستثمار آليات هذه المقاربة للإحاطة بإشكالية تجنيس "الرسائل".

الكلمات المفتاحية: الأنواع الأدبية. الدراسات النقدية. الخطاب. المقاربة. اللغة

literature can only be understood by relating it to the concept of "literary genre". The point is that the question of literary genres is very old, as it had a presence in ancient Western thought with Plato and Aristotle to rekindle interest in it in contemporary critical studies, especially with the emergence of linguistic approaches. who have tried Striving to understand literary discourse and the deliberative approach is one of the most important of those approaches which have attempted to relate linguistic production to its users and to the various circumstances and circumstances surrounding the articulation process. Through this research, we will seek to exploit the mechanisms of this approach to surround the problem of the naturalization of "messages

Keywords: literary genres. critical studies. the speech. approach. language

1- الجنس الأدبي : المصطلح و المفهوم

ورد في كشف اصطلاحات الفنون أنّ الجنس هو " الضرب من كلّ شيء ، وهو أعم من النوع " ¹ فجوهر الجنس يتحدد بما يميزه عن غيره من الأجناس ، و لذلك اعتمد سعيد يقطين في تمييزه بين الجنس و النوع على العناصر الجوهرية المكونة لعمل لغوي ما " فإذا كانت الأجناس متصلة بالمقولات الثابتة فإنّ الأنواع ترتبط بالمقولات المتحولة ، ارتباط الخاص بالعام " ² و لذلك يمكن القول : إنّ الأجناس ثابتة ، و الأنواع متحولة .

و تجدر الإشارة أنّ قضية الأجناس الأدبية في النظرية الشعرية انطلقت مع محاولة أرسطو التي تعتبر من أعرق المحاولات النقدية التي حاولت تقسيم الأدب إلى ثلاثة أجناس : غنائي و ملحمي و دراميّ معتمدا في ذلك على تصور علميّ دقيق " قائم على وصف للملاح و تحديد للمكونات و اقتراح للآليات الفنية " ³

2- التصنيف الأجناسي للرسائل

يعتبر الدارسين أنّ كل أثر أدبي ينتمي بالضرورة إلى جنس ، ويفترض ، تبعا لذلك ، أفق انتظار يوجه فهم القارئ ، و لكنه يجب الإشارة كل جنس أدبي يتسم بالمرونة فهو قابل للتوسع في بعض خصائصه المكونة ، و اللجوء إلى تاريخ الأجناس هو الوسيلة الوحيدة التي تسمح بتمييز العناصر القارة من

العناصر المتغيرة ، و أفق انتظار القارئ يستند دائما على فهم هذه القواعد حتى يتسنى له فهم النصوص الجديدة .

عرفت الدراسات النقدية الكثير من المقاربات التجنيسية ، و لعل من أهمها ما قام به أرسطو في مؤلفاته ، بالإضافة إلى مقارنة ستمبل Stempel التي اعتمدت على وجهة نظر التلقي معتبرة النص الأدبي تحقفا لمقولة الجنس ، و مقارنة شافر schaeffer الذي بحث قضية الأجناس الأدبية من زاوية التفسير و ميز بين الأجناسية و بين ما يسميه قائمة العلاقات النصية الممكنة " فليست العلاقة الأجناسية سوى إحدى تلك العلاقات "4 . أما مقارنة باختين فاعتمدت على تصنيف الأجناس الأدبية إلى نوعين : أجناس أولية و أجناس ثانوية

تشكل الأجناس الأولية وفق المبدأ الحوارى للغة ، فكل الملفوظات التي نتجها تكون بالضرورة مسبقة بملفوظات أخرى تشبهها تنتجها عقول أخرى ، فتكون ملفوظاتنا موجهة إلى آخرين ، تماما كما تلقينا نحن ملفوظات أخرى كان مصدرها غيرنا

أما الأجناس الثانوية فهي في نظره وحدات تواصلية اجتماعية و ثقافية أكثر تركيبا وتنظيما (الرواية مثلا) لأنها تتشكل من خلال احتواء الأجناس الأولية و دمجها⁵

تشكل مسألة تجنيس الخطاب الأدبي مركز اهتمام المشتغلين بتحليل الخطاب ، فالحدث اللغوي لا يكون له معنى عند إنتاجه وعند تلقيه ، دون استحضار فكرة تجنيسه أو تميظه " فالجنس الجنسي يعتبر جزء من الجنس اللغوي "6 .

ومع الدرس اللساني ما بعد البنيوي بتياريه التداولي على وجه الخصوص ، صار محلل الخطاب يهتم بإيجاد أشكال تأليفية للأشكال اللغوية يتكون منها كل نوع خطابي ، وإن " كما نريد أن نتجنب كل نظر نوعي في الخطاب في الخطاب حول الأعمال الأدبية ، فإن الصمت سيكون المخرج الوحيد و ذلك لأننا منذ اللحظة التي تطابق فيها عملا من الأعمال عن طريق مصطلح عام مهما كان وإن كان عن طريق عمل فريد تماما ، فإننا سنستخدم فئة نوعية "7 و ستعتمد كل عملية تجنيس على قواعد تمييزية ، و على محلل الخطاب أن يكون واعيا بهذه القوانين ليستطيع فهم الخطاب .

إن المقاربة التداولية في تعاملها مع تأسيس الأجناس الأدبية تراعي وظيفتها اللغوية والاجتماعية ، أي باعتبار ما ينجز بواسطة هذا النص ، أو ما يتركه من أثر .

و بالجملة فإن تصنيف النصوص خاضع لثلاثة معايير عامة : الموضوع - الآلية - البنية . فينتج عن التصنيف القائم على معيار الموضوع : الخطاب الديني و الخطاب العلمي و الخطاب الإيديولوجي ، و الخطاب السياسي وغير ذلك من الخطابات و ينتج عن النظر إلى البنية الخطاب القصصي و الشعري ضمن نمط خطاب أكبر هو الخطاب الأدبي . أما اتخاذ الآلية معيارا فيتولد عنه الخطاب السردى و الخطاب الوصفي و الخطاب الحجاجي . و يشترط أحمد المتوكل أن يؤخذ بعين الاعتبار مفتوحة الصنف و درجيته و فرعيته .⁸

إن تطور البحوث التداولية أدى إلى ظهور مجموعة من النظريات الأدبية التي تجاوزت التصنيفات السابقة للخطاب الأدبي التي وسمت بالأجناس التاريخية إشارة إلى شيوعها بين الدارسين منذ القدم ، و استبدلت هذه التقسيمات الكلاسيكية بتصور تداولي للجنس الأدبي يستثمر الوظائف التواصلية و التظاهرات الخطابية ومن هذه المحاولات الجادة ما قام به ج . م . شايفر . J . M . Schaeffer في مسألة التجنيس ، منطلقا من مستويات ثلاث : مستوى التعبير ، مستوى المقصد ، ومستوى الوظيفة.⁹

و تجدر الإشارة أن التجنيس خاضع للسمات الخارجية -الإكراهات المقامية - و السمات الداخلية للنصوص و هي التي تتجلى فيها الإكراهات الخطابية الملازمة لجنس الخطاب و نعني بها السمات اللغوية البحتة كالمكون المعجمي أو التركيبي أو النصي ... و غيرها مما نجمعه عادة تحت مسمى الأسلوب . لكن هذا لا يعني فصل مستويات الخطاب ، ذلك لأنه نتاج تفاعل بين السياق المقامي و النص ، ويمتاز هذا التفاعل الجدلي بتبادل التأثير فكل منهما ينشئ الآخر .

يرى باتريك شارودو أن تحديد الجنس مرتبط بتحديد الظروف المقامية المرتبطة بالوضعية التواصلية التي ينجز فيها الخطاب ، و ذلك ما يطلق عليه العقد التواصلية الذي يحفّ عملية التلفظ " باعتباره مجموعة الشروط التي يتحقق فيها كل فعل تواصلية .. ما يسمح لأطراف التبادل اللغوي من أن يعترف الواحد منهم بالآخر ، و بالتعرف على مرمى الفعل و بالاتفاق على ما يكون الموضوع المحوري

للتبادل ، و بالأخذ بعين الاعتبار وجهة الاكراهات المادية التي تحدد هذا الفعل¹⁰

و هكذا يسمح لنا مفهوم العقد بجمع النصوص التي تشترك في خضوعها لنفس شروط الوضعية التواصلية ، في صنف واحد.

إن هذا التصور لا يلغي المكونات الداخلية للنصوص أثناء عملية التجنيس ، و لهذا لا يمكن تحديد الأجناس إلا باعتبارها نقطة الالتقاء بين الإكراهات المقامية المحددة بالعقد التواصلية الشامل و إكراهات التنظيم الداخلي و خصوصيات الأشكال النصية التي ترصد بواسطة تواتر السمات الشكلية .

3- التصنيف الأجناسي التداولي للخطاب الرسائي

عرف الخطاب الرسائي إشكاليات عديدة أثارها التصنيف الأجناسي التداولي ، خاصة ما تعلق بالإكراهات المقامية الخارجية لجنس الخطاب ، و الإكراهات النصية الداخلية المرتبطة بهذا النوع الأدبي ، و سنحاول فيما يلي رصد أهم هذه القضايا :

2-1- إشكالية التسمية

تطرح إشكالية التسمية في مسألة التجنيس الكثير من اللبس و الإضطراب المفاهيمي ، خاصة مع بعض الأنواع الأدبية كالجنس الرسائي الذي يعاني من صعوبة تصنيف نصوصه وفق معايير صارمة . ففي أدبنا العربي يثير هذا الجنس الكثير من الصعوبات في وضع قواعد تصنيفية محددة ، فعلى سبيل المثال تسمية الرسائل التي تتعلق بأمور الحكم و سياسة الرعية باسم الرسائل الديوانية

تسمية غير دقيقة ، فالكثير من الرسائل التي موضوعها السياسة و أمور الحكم لا تصنف ضمن الرسائل الديوانية بحجة أنها لم تصدر عن ديوان الرسائل . و تسمية نوع من الرسائل باسم الرسائل الإخوانية يضيق عن استيعاب بعض الرسائل التي لا تسم بالمودة و الطابع الأخوي ، مما جعل بعض الباحثين يعتبرون رسائل الهجاء أو الشكوى رسائل اجتماعية لأنها تخرج عن معاني الأخوة .

11

إنّ هذه الإشكالية حاضرة أيضا في الأدب الغربي ، فقد أحصى النقاد الغربيين أكثر من تسعة وأربعين شكلا من الرسائل ، و أثار الدارسون قضية أدبية الرسائل و استبعد بعضهم هذا النوع من الكتابة من الأجناس الأدبية ، و هذا ما قام به لانسون Lanson معتبرا أنها مجرد محادثات مكتوبة . و الوجه الآخر من إشكالية اسم الجنس الرئائي هو صعوبة حصر خصائصها المقامية

و الخطابية¹²

2-2- إشكالية التفاعل الخطابي

إن أهم ميزة يمتاز بها الخطاب الرئائي هو التباعد المكاني و الزماني بين طرفي الخطاب عكس الخطاب الشفوي الذي يضمن تفاعل مباشر بين المتكلم و المستمعين و لكنه لا يمنح المتكلم إمكانيات أوسع لمراجعة الكلام مثلما هو الحال في فن الترسل .

لا يكون التفاعل في الأدب الرئائي أنيا ، بل هو مؤجل إلى حين قراءة الرسالة فقراءة المكتوب شرط كاف لإتمام عملية التواصل ، و به تتحقق شروط التلغظ التداولية و هذا ما يطلق عليه القراءة باعتبارها تلفظا .

انطلقت أوركيوني Orechionni من هذا التصور المنهجي معتبرة التفاعل الرسائي قائماً على مفارقة خطابية واضحة " فبقدر ما توهم وفرة الإحالات إلى السياق المكاني و الزماني ، بالحضور ، تؤكد حقيقة غيابه ، طالما أن هذه الإحالات لا يكون لها ضرورة في وضعيات التواصل التشاركية " ¹³

2-3- إشكالية الأجناس الخطابية

يتسع الخطاب الرسائي ليستوعب مختلف أنواع الملفوظات شعرا ونثرا و هذا ما يطلق عليه تداخل الأجناس ، و قد تفتن العرب قديما لهذا التداخل ، فأبو هلال العسكري ربط بين الرسالة و الخطبة ، إذ لا فرق بينهما إلا بالتسمية فقط ، فحتى وإن كانت الخطبة تلقى مشافهة و الرسالة تكتب ثم يبعث بها ، إلا أنه من السهل أن تجعل الرسالة خطبة و الخطبة رسالة ¹⁴

و استوقفت هذه الظاهرة الخطابية الدارسين المعاصرين كالباحث صالح بن رمضان الذي اعتبر أن الرسائل تمتاز " بانفتاحها على أجناس السرد الذاتي و اقتضاءها لمقاصد الخطابة والشعر " ¹⁵ .

يمكن تقسيم هذا التداخل الأجناسي إلى نوعين هما : تداخل صريح و تداخل ضمني .

يظهر التداخل الصريح في توظيف الشاهد الأدبي الذي تندرج تحته نصوص مختلفة الأجناس كآيات القرآنية الكريمة و الأحاديث الشريفة ، و آيات الشعر ، و الحكم و الأمثال و أنماط السرد ¹⁶

و أما التداخل الضمني فيحدث في مستويين : " مستوى يشمل الأبنية المجردة ، ومستوى يشمل النصوص المحفوظة أي التي استخدم فيها أصحابها تلك الأبنية "

17

يهب هذا التفاعل النصي الرسالة قيمتها ، فهو يضعها ضمن سياق محدد يعين المتلقي على تأويلها، ويمكنه " من افتراض مجموعة من التوقعات التي يعمل بموجبها على فهم تشكل النصّ و تأويله في إطار تقاليد عصره، و تكهن العلاقات التي يمكن أن نقيمها مع تراثنا الحالي و عصرنا"¹⁸

إنّ الرسالة نصّ إبداعي لا يمكن قراءته بمعزل عن الظروف و الملابس و التلويحات الاجتماعية و الثقافية التي أنتج في حضنها، فأبي خطاب " لا بدّ له لكي يتشكل و يكتسب معالمة الجماليّة من أن يستتضم داخله نصوصا أخرى يحاورها، و يعيد إنتاجها كلا أو جزءا بغاية التنويع على الأساليب و البنيات"¹⁹ فلا حياة لنص إذا قطعت الصلة بينه و بين ما أنتجه الغير من إبداع .

3- التصنيف الأجناسي التداولي لرسائل الجاحظ

إن أهم مسألة في تحليل الخطاب هي مسألة تصنيفه أو تحديد جنسه الأدبي لأن ذلك هو ما سيرسم مسار قراءته ، و حين يتعلق الأمر بنصوص الجاحظ فإن ذلك سيطرح الكثير من القضايا لكثرة الآراء النقدية الصادرة حول مؤلفاته .

استثمر النقد المعاصر التصنيف الأجناسي التداولي في مقارنة رسائل الجاحظ ، معتبرا أنها " من الخطابات المؤسسة"²⁰ فحاول الوقوف على السمات المقامية المميزة لهذه الرسائل ، فقد سمى الجاحظ كتابته بالرسائل لأنها كانت موجهة

إلى مرسل إليه محدد في الغالب وفق عقد تواصل يراعي مراتب الكلام و المتلقين . و هو باختياره لهذا النوع من الكتابة على حساب المشافهة حاول الارتقاء بهذا الجنس الأدبي ، و توظيفه في معاركه الكلامية وجعله حاملا لوجهات نظره في مختلف القضايا الفكرية جازما في علاقته بالمتلقين أن " قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاميهم " ²¹

و نتج عن هذا الاختيار آثار مقامية تلفظية ، تجلّت في اختلاف المخاطبين بهذه الرسائل و هم في الأغلب من خاصة القوم .

و إذا عرّجنا إلى السمات الداخلية لرسائل الجاحظ ، فإننا نلاحظ أنها تكون من ثلاث وحدات نصية كبرى : الصدر ، و المتن ، و الخاتمة . و تمتاز هذه الرسائل بمقامها الترسي الاختياري و باعتمادها بلاغة الإقناع ، فكلمات الجاحظ هي نصوص حجاجية بامتياز خاضعة لعقد تواصل يتوخى استمالة المتلقين ، ففي رسالة الترييع و التدوير مثلا بدأ الجاحظ رسالته بقوله " كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، و يدّعي أنه مفرط الطول " ²² هو ابتداء عدل الجاحظ فيه عن الصيغ النمطية المعروفة ليتلائم مع موضوع الهجاء .

و نوع الجاحظ أيضا في الخواتيم لتتلاءم مع الاستراتيجية الحجاجية التي بنى عليها رسائله ففي ختام رسالة الشارب و المشروب يقول : " و قد كتبت لك في هذا الكتاب ما فيه الجزاية و الكفاية ، و لو بسطت القول لوجدته متسعا فجعلت الهزل بعد الجدّ جماما ، و الملحة بعد الحجة مسترحا " ²³

يرتكز النظام الحجاجي في رسائل الجاحظ على المرجعية المعتزلية التي فرضت عليه " انتهاجا واعيا للاستدلال كوسيلة لإثبات صحة ما يدعو إليه ، وإبطال ما يأخذه على خصومه " ²⁴

-قائمة المصادر و المراجع

¹-محمد أعلي بن علي التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، دار صادر ، بيروت ، 1861 ، ج 1 ، ص 124

²-سعيد يقطين ، الكلام و الخبر ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1997 ، ص 183

³-زروقي عبد القادر ، خطاب السرد و هوية الأجناس ، مجلة الأثير ، العدد 22 ، جوان 2015 ، ص 116

⁴-عبد العزيز شبيل ، نظرية الأجناس الأدبية في التراث العربي جدلية الحضور و الغياب ، ط1 ، 2001 ، ص 57

⁵-تودوروف و ميخائيل باختين ، المبدأ الحوارية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، لبنان ، ط2 ، 1996 ، ص 108

⁶-راستي فرانسوا ، فنون النص و علومه ، تر ادريس الخطاب ، ط2010 ، ص 278

⁷-ديكرو و شايفر ، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان ، تر منذر عياشي ، المركز الثقافي العربي المغرب ، ط2 ، 2007 ، ص 560 ،

⁸-أحمد المتوكل ، الخطاب و خصائص اللغة العربية ، منشورات الاختلاف ، ط1 ، 2010 ، ص 25

⁹-ينظر جان ماري شايفر ، ما الجنس الأدبي ، تر غسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سوريا ، 2005 ، ص 60-77

¹⁰-باتريك شارودو و د مانغونو ، معجم تحليل الخطاب ، تر حمادي صمود و عبد القادر المهيري ، دار سيناترا ، 2008 ، ص 138

- ¹¹-نبيل خالد رباح أبو علي ، نقد النثر في التراث العربي حتى نهاية العصر العباسي
656 هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1993 ، ص 268
- ¹²-ينظر درار البشير ، تجنيس الخطاب الرسائلي بين المعيارية و الإنزياح ، مجلة
المعيار ، الجزائر ، العدد 05 ، جوان 2012، ص 72
- ¹³ – Kerbrat-Orechionni . Catherine : la lettre entre réel et
fiction , Ed SEDDES , 1998 , p 17
- ¹⁴-ينظر أبو هلال العسكري ، الصناعتين، تح علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل
إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1952، ص 136
- ¹⁵ صالح بن رمضان ، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، دار
الفرابي ، ط1، 2001، ص 89
- ¹⁶-المرجع نفسه، ص 416-417
- ¹⁷-نفسه ، ص 455
- ¹⁸-عبد السلام أزيار ، آليات التفاعل النصي ودورها في التجنيس الأدبي ، دار كنوز
المعرفة ، ط1، 2016، ص16
- ¹⁹-المرجع نفسه ، ص 218
- ²⁰-محمد مشبال ، البلاغة و السرد ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة عبد
المالك السعدي ، المغرب ، ط1 ، 2010 ، ص 160
- ²¹-الجاحظ ، رسالة الفتيا ، ضمن الرسائل الأدبية ، ت و ش علي بوملحم ، دار مكتبة
الهلال ، ط 1 ، ص 248
- ²²-المصدر نفسه ، ص 431
- ²³- المصدر السابق ، ص 287

²⁴ - درار البشير ، الاستدلال في رسائل الجاحظ ، مجلة القلم ، العدد 25 ، جويلية
2012 ، ص 380